شهادة الحق

ابو الأعلى المودودي

دار الشهاب - باتنة

شهادة الحق

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

ابو الأعلى المودودي

شهادة الحق

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الشهاب للطباعة والنشر
عمار قرفي
باتنــة ☆ الجزائر

الهاتف : 55.79.54 ـ 55.86.01
تلكس: 82991 A.GUERFI

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة الحق

(خطبة ألقاها الأستاذ المودودي - أمير الجماعة الإسلامية - في حفلة بمدينة سيالكوت «من مدن بنجاب الغربية» ، بين فيها الدعوة الإسلامية وأوضح للناس منهاج الفكر والعمل الذي تدعو إليه الجماعة الاسلامية) .

الحمد لله الذي تفرد بنعوت الخلق والأمر في هذا الكون ؛ والذي حكمه نافذ في السماوات والأرض ، وذلك ببديع حكمته وكمال قدرته التي وسعت كل شيء رحمة وعلماً . وهو الله الخالق الفرد الصمد الذي خلق الإنسان وأنعم عليه مواهب العلم والعقل وجعله في الأرض خليفة وأرسل رسلاً من عنده لهدايته وإرشاده الى طريق الخير

والرشاد ، وأنزل عليهم الكتب ، فيها هدى ونور وموعظة للمتقين . والصلاة والسلام على عباد الله الصالحين المصطفين الذين أرسلوا مبشّرين ومنذرين ، هداةً للبشر ينيرون لهم المحجة البيضاء ويعلمونهم طريق الإنسانية السليمة العادلة ؛ والذين علّموا الإنسان ما خلقهم الله لأجله ، ودلّوهم على مناهج المعيشة الصالحة المستقيمة في هذه الدنيا . فكل ما تراه اليوم في هذه المعمورة الأرضية من بقايا نور الهداية وطيب الخلق وآثاره من الصلاح والتقوى إنما يرجع فضلها إليهم . ولولا فضل الله علينا ورحمته بإرسال هؤلاء الرسل إلينا ولولا جهودهم المتتابعة المتواصلة ومساعيهم المشكورة في سبيل الدعوة والهداية ، لما كان اليوم على وجه البسيطة نور للهداية يظهر أو نجم للرشاد في سمائها يلمع . فالإنسان مثقل كاهله بمننهم وأياديهم ، ولن يمكنه أن يتخلص منها أبداً .

إخواني ! لقد أصبح من منهاجنا أن نقسم حفلاتنا ومؤتمراتنا على قسمين : قسم نتذاكر فيه ، نحن أعضاء الجماعة الإسلامية ، نستعرض فيه أعمالنا وجهودنا ونتشاور في ما بيننا في الخطط والطرق التي يجدر بنا سلوكها والسير عليها لنشر الدعوة وتعميمها . وقسم ندعو إليه من تمكن دعوتهم من أهل البلدة أو القرية التي نعقد فيها المؤتمر ،

نبين لهم فيها الدعوة الإسلامية ونوضح لهم المنهاج الذي انتقيناه واخترناه لبث مكارم هذه الدعوة الخالدة ونشر محاسنها . وهذه الحفلة التي حضرتموها الآن على دعوة من أعضاء الجماعة هي من القسم الأخير الذي أشرت إليه آنفاً . فها نحن أولاء نريد الآن أن نبين لكم دعوتنا وما ندعو إليه البشر كافةً من سعادَتَيْ الدنيا والآخرة .

فدعوتنا الى الذين آمنوا بالله ورسوله والى الذين لم يسعدوا بعدُ بالإيمان على حد سواء . ولكل من الفريقين عندنا دعوةٌ خالصة لله ولرسوله ، ورسالةٌ خاصة بظروفهم وأحوالهم ، ولكن الأسف أن هذا الحفل الحافل لا يكاد يقع فيه نظرنا على عدد من الفريق الآخر . والتبعة في ذلك على السياسة العوجاء التي سار عليها ملوكنا وأمراؤنا في القرون الثمانية السالفة في معاملتهم لأهالي هذه البلاد ، حيث لم يحافظوا على قوانين الإسلام الدولية ولم يعاشروهم معاشرة الدعاة الفاتحين لأهل الذمة شأن الفاتحين من العرب الأوَل في معاملتهم لمن انقاد لهم من غير المسلمين في بلاد العراق والشام وغيرهما . وما لنا أن نبرىء أنفسنا من تحمل هذه التبعة ، فإننا لم نغير خطتنا بعد وما زلنا نعاملهم معاملة الأمم والشعوب الأجنبية المعادية لنا في

الدم واللغة والثقافة ، حتى أصبح الإسلام في أعينهم دين أمة خاصة وسلالات مخصوصة ، لا دين الإنسانية جمعاء . فكانت النتيجة من هذا وذلك أن عدداً كبيراً من عباد الله أصبح يستوحش من الدعوة الحقة ولا يكاد يصغي الى من يبلغهم الرسالة الخالدة التي بعث بها الله الذي هو ربنا وربهم ورب كل شيء ، الأنبياء والرسل لهدايتنا وإياهم الى طريق الفلاح والسعادة . ومن أجل ذلك رأيت أن أقتصر في هذه الخطبة على بيان الجزء الذي يهم المسلمين من هذه الدعوة .

فدعوتنا للمسلمين أن يشعروا بالمسؤولية العظمى التي ألقيت على كواهلهم بما ادعوه من الإيمان بالله واليوم الآخر وأقروا به من الإذعان لأمر الله ورسوله . فإنه لا يمكنهم أن يتخلصوا من أعباء هذه المسؤولية بمجرد القول بالإيمان والادعاء بكونهم مسلمين ؛ فالاكتفاء بالكلام والدعاوى الفارغة لا يسمن ولا يغني من جوع في هذا الشأن . بل الحق أنكم إذا رضيتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وشهدتم شهادة الحق ، فعليكم أن تشعروا أيضاً بالمسؤوليات التي تتحتم عليكم بمجرد أداء هذه الشهادة وتتفكروا في القيام بنصيبكم من هذه الواجبات المهمة ؛ فإنكم ان لم تكونوا قمتم بما يجب عليكم من الجهد والسعي في هذا الصدد ذقتم وبال أمركم

وأصبحتم من الخاسرين في الدنيا والآخرة . وربما تسائلني في هذا المقام : فما هذه المسؤوليات التي تنذرنا عواقب تركها والغفلة عنها؟ فليكن منكم على ذكر ولا يغيبن عن بالكم أبداً أن تلك المسؤولية الكبرى لا تنتهي بمجرد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكذلك لا يُقضَى حقها بالصلاة والصوم والزكاة والحج فحسب ؛ وعلى غرار ذلك ليس معناها أن تلتزم قوانين الشرع في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث ثم تكون هادىء البال مطمئناً لا ينبض لك عرق ولا يُقض عليك مضجع . لا ، لا ، ليس الأمر كذلك ، بل هناك مسؤولية أخرى أعظم من كل ذلك وأخطر شأناً ؛ ألا ، وهي أن تؤدي بين يدي العالم شهادةَ الحق الذي آمنت به ورضيت به لنفسك ديناً . وها هو الكتاب العزيز يذكركم بأنه تعالى شأنه وتقدست أسماؤه ، ما جعلكم أمة وسطاً وما اصطفاكم من بين أمم العالم إلا لتؤدوا هذه الشهادة بإبلاغ كلمة الحق الى بني آدم كافة ، بأعمالكم الصالحة وأخلاقكم الزكية وسياستكم العادلة المستقيمة حتى تتم حجة الله على عباده ولا يمكنهم أن يجحدوا بتبليغ الأنبياء وبلوغ كلمة الحق الى مسامعهم يوم يقوم الأشهاد ؛ فقال ، عز من قائل :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . [البقرة : ١٤٣]

وغير خاف عليكم ما عاقب به الله الكاتمين للشهادة في هذه الدنيا ، وعياذاً بالله من شرور ما سيعاقبهم به في اليوم الآخر . فقد قال ، تبارك شأنه وتعالى مجده :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ . [البقرة : ١٤٠]

وها هم أولاء اليهود قد ألقيت إليهم مقاليد الشهادة من قبلكم ، لكنهم كتموا هذه الشهادة تارة وشهدوا على الحق تارة أخرى بغياً منهم وعدواناً ، بل تمادوا في البغي وأصبحوا بأعمالهم وما ظهر من منكرات أقوالهم شهداء بالباطل متكبرين على الحق فاستحقوا اللعنة الأبدية وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ، كما نطق به لسان الوحي .

والمراد بهذه الشهادة التي فوّض أمرها إليكم بعد الرسالة المحمدية أن تُبيّنوا للعالم الحق البين الذي انكشفت لكم حقيقة أمره وترشدوهم الى الطريق الوحيد الموصل الى سعادتي الدنيا والآخرة ، وأن تدلّوهم على المنهاج القويم

المستقيم الذي أوضح لكم الله معالمه وأنار بُنيّات مسالكه والذي هو المنهاج الوحيد الصحيح المرضي عند الله ، الكافل سعادة البشرية جمعاء . فصفوة المراد بهذه الشهادة التي أنتم مطالَبون بها بين يدي العالم أن تشهدوا لهذا الحق المستبين والمنهاج القويم شهادةً تحقق صدقه وتكون له برهاناً ناصعاً حتى تتكمل بها حجة الله على عباده في أرضه . ومن البين الظاهر الذي لا خفاء فيه أن الأنبياء والرسل لم يبعثوا إلا لأداء هذه الشهادة ، وكان فرضاً عليهم محتوماً. ثم ما زالت هذه الشهادة على توالي الأيام تُفرَض تحتم بعدهم على الذين آمنوا برسالاتهم واتبعوا أمرهم . واليوم هذه الشهادة ملقاة مسؤوليتها على الأمة المسلمة المؤمنة بالرسالة المحمدية ، على صاحبها ألف تحية وسلام ، واجبةٌ عليها بأجمعها ، كما كانت واجبة على صاحب الرسالة ﷺ في حياته بصفته الفردية .

وغير خاف عليك ما لهذه الشهادة من أهمية وخطورة ؛ فإن ما شرعه الله من قانون المجازاة ومكافأة الناس بأعمالهم ومحاسبتهم عليها ، إنما أسه وعماده هذه الشهادة . وبيان ذلك أن الله ذو حكمة بالغة ورحمة واسعة قائم بالقسط ، فلا يجدر بحكمته ولا يليق برحمته وقسطه أن يأخذ الناس بذنوبهم ويعاقبهم بعدولهم عن الصراط السوي

وانحرافهم عما فيه مرضاته ، وهم لا يعرفون السبيل التي ترشدهم الى الخير وتحذرهم المعاصي والآثام ، ولا علم لهم بالطريق القويم الذي يبلغهم مدارج الكمال الإنساني . وكيف يرجى مثل ذلك من الرب الكريم الذي وصف نفسه بالرحمة والعفو والإحسان في غير آية من الذكر الحكيم ؟ فليس المأمول من الذي تفرد بنعوت الرحمة والغفران وأثنى على نفسه بها أن يحاسب عباده على ما لم يخبروا به من قبل ولم ينذروا به بواسطة رسله وأنبيائه والصالحين من عباده . ولذلك بدأ الله الخلق بنبي كريم ، ثم أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين ، فتتابعوا على تعاقب الأيام والأجيال ممن قد قصصهم الله علينا في كتابه ومن لم يقصصهم ، من الذين لا يعرف عددهم إلا خالقهم . وإنما بعث الله تلك الرسل ليعلّموا الجنس البشري المنهاج القويم المرضي عند الله في هذه الحياة الدنيا ويرشدوهم الى الطريق الذي يهديهم الى التمتع برضوان الله وفضله العظيم ، وأن يفصلوا لهم من مسالك الحياة وشعبها وفروعها ما يقربهم الى الله ويدنيهم من رحمته واجتناء ثمرات بره وإحسانه وينذروهم بالأعمال التي ينبغي لهم اجتنابها ، والتي يحاسبون عليها بين يدي ربهم يوم القيامة . وذلك مما بيّنه الله في كتابه بقوله :

رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً . [النساء : ١٦٥]

وبذلك يتبين صدق ما أشرت إليه آنفاً من أن هذه الشهادة التي أمر الله بأدائها ، إنما أراد بها أن تنقطع حجة الناس على الله ولا يبقى لأحدهم عذر بعد تبليغ الأنبياء أن يقولوا : « إننا ما أخبرنا بذلك من قبل ، فكيف السبيل الى عقابنا بما لم نعرف خيره من شره وحسنه من سيئه ؛ وهكذا ألقى ربك هذه المسؤولية على رسله الذين اصطفاهم لإبلاغ رسالته وأداء هذه الشهادة على عباده . وكأني بالرسل أمام هذه المسؤولية الفادحة أنهم إذا قاموا بتبليغ هذه الرسالة أحسن قيام وأعطوا هذه الشهادة حقها من العناية والصبر والجلد ولم يألوا في ذلك جهداً ، فالناس مجزيون بأعمالهم ومحاسبون على سيئاتهم وما اجترحت أيديهم من شنائع الأعمال ؛ وإلا فالأنبياء هم الذين يُؤاخذهم الله بضلالات الناس ومنكرات أعمالهم . وبعبارة أخرى كانت الرسل بين أمرين : إما أن يقوموا بواجب الشهادة خير قيام ويُتمّوا حجة الله على خلقه ، وإما أن تكون للناس حجة عليهم أمام ربهم : أنهم لم يبلغوهم كلمة الحق الذي كانوا أمروا بتبليغه للناس ولم

يرشدوا بني جلدتهم الى المنهاج القويم الوسط الذي أنزل عليهم في صحف منشرة من عند ربهم . ومن أجل ذلك نرى أن الأنبياء عليهم السلام جميعاً كانوا يشعرون بثقل هذه الأمانة وأيّ شعور ، فسعوا سعيهم لأداء هذه الشهادة وإبلاغ رسالاتهم الحقة وبذلوا في ذلك من الجد والمشقة ما لا يكاد يطيقه عامة الرجال . حتى قضوا واجبهم وأتموا حجة الله على خلقه ولم يدعوا للطغاة والمتكبرين الذين صدفوا عن قبول الدعوة وكذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة مجالاً للقول أمام العزيز المقتدر يوم يقول لهم : (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) . ثم الذين تلقوا هذه الدعوة بواسطة رسل الله وعرفوا طريق الحق وسلكوا الصراط المستقيم الذي أرشدتهم إليه الأنبياء عليهم السلام جميعاً جعل الله منهم أمة ورثت تلك المسؤولية — مسؤولية منصب الشهادة — عن أنبيائها وقامت مقامهم في تحمل هذه التبعة أمام الله وأمام عباده في أرضه . فكأني بها إذا قامت بواجب الشهادة ولم تتهاون فلها أجرها عند الله ؛ سواء على الناس أقبلوا دعوتهم أم لم يقبلوها ؛ فإن الله مجازيهم بأعمالهم الحسنة ومعاقبهم بشنائعهم وأفعالهم المنكرة . وأما إذا تهاونت في أداء هذه الشهادة أو تمادت في الغي وقلبت الأمر ظهراً لبطن حتى أصبحت

أقوالها شهادة للباطل على الحق ، فسيؤاخذها الله بتهاونها وشهادتها بالباطل قبل سائر الناس ويحاسبها على أعمالها وعلى أعمال الذين تاهوا في بيداء الضلالة لعدم قيامها بواجب الشهادة أو تنكبوا الصراط السوي لشهادتها بالباطل .

فيا أيها السادة ! هذه مسؤولية الشهادة الخطيرة الواجبة المحتومة علينا جميعاً ، على الذين يعدون أنفسهم من الأمة المسلمة ، والذين بيدهم كتاب الله العزيز والهداية التي تلقوها بواسطة أنبيائه ونبيهم وخاتمهم النبي الأمي العربي ﷺ . فلننظر الآن : ما هو الطريق القويم لأداء هذه الشهادة ؟ فاعلموا أن هذه الشهادة على نوعين : قولية وعملية .

أما الشهادة القولية فهي أن نبين للناس كافة (الحق) الذي بلغنا بواسطة أنبيائه ورسله ، نبينه لهم باللسان والقلم وبما يمكن استخدامه من وسائل الدعوة والتلقين والتبليغ وبما تصل إليه أيدينا من آلات النشر والطبع والاذاعة وغيرها من الوسائل السائرة التي سخرها إنسان القرن العشرين . نستخدم هذه الوسائل ونتذرع بجميع العلوم والفنون وحقائقها القديمة والمستحدثة التي تناولها العقل البشري بالبحث والتنقيب ، ثم نتقدم الى العالم حاملين هذه الدعوة ونعرف أهله بالدين الذي جعله الله ديناً — أي

منهاجاً للحياة شاملاً – للبشرية قاطبة ونوضح لهم تعاليمه الحقة المستنيرة ونفصل لهم ونشرح ما جاء به هذا الدين القيم من التعاليم والطرق والمناهج لإرشاد البشر في سائر نظم الحياة من العقيدة والمبدأ والخلق والعمران والحياة الاجتماعية الى ما سنّه من القوانين والبرنامج العملي للحياة الاقتصادية والمعاملات التجارية والقضاء وقانون البلاد والسياسة العامة وتدبير أمور المملكة وغيرها مما يعرض للإنسان من المشاكل في حياته اليومية ؛ نشرح كل ذلك شرحاً ونحقق صدقها بالحجج والبراهين ونقرر كونها حقاً وسطاً بالبينات والشواهد ؛ وكذلك ننتقد كل ما يخالف هذا الحق ويعارضه من النظريات والأفكار انتقاداً نزيهاً مستنداً الى أصول العلم والتحقيق ، حتى لا يبقى منزع للشك وينجلي الحق لكل ذي عينين .

هذا ، وليكن منكم على ذكر أنه لا يمكن قضاء حق هذه الشهادة القولية والقيام بواجبها الحقيقي إلا إذا تعاونت الأمة بأسرها على ذلك واتخذت بمجموعها هداية الخلق وإرشادهم الى طريق الحق غايتها في الحياة وهمها الوحيد الذي لا تغمض عنها عينها ، شأن الأنبياء في أداء رسالاتهم ، حيث ما كانوا ليغفلوا عن هداية البشر ، ولا طرفة عين . فلا بد لأداء هذا الواجب من أن يكون هذا العملُ

القطبَ الذي يدور حوله رحى سائر جهودنا الاجتماعية وحركاتنا الجماعية القومية ، والغرض الذي نرمي إليه بكل ما نملكه من القوى المعنوية والخلقية والوسائل المادية وأن يكون ذلك غايتنا المثلى وهدفنا الأسمى في كل ما نقوم به من عمل وما نبذله من سعي وجهد . وأما أن يكون فينا من ينعق بالباطل ويجاهر بمعارضته هذا الحق المستنير فذلك مما لا يقدر أن يتحمله المجتمع الذي اتخذ أداء شهادة الحق نصب عينه وهمّه الوحيد ، إذا كان صادقاً في دعواه مخلصاً .

أما الشهادة العملية فالمراد بها أن تكون حياتنا العملية مرآةً الأصول والمبادىء التي نعتقدها وندعو الناس إليها . فإنه لا يكفينا من أداء هذا الواجب أن يسمع الناس كلامنا في الثناء عليها والاشادة بذكرها ؛ بل الذي يؤثر في النفوس ويأخذ بمجامع القلوب أن يشاهدوا بعيونهم هذه التعاليم والحسنات ، التي نلهج بذكرها دائماً ، متجلية في أعمالنا ، متمثلة في حياتنا اليومية. فالذي يجلب الناس الى قبول هذه الدعوة أن يلمسوا في عشرتنا ومعاملاتنا ذلك الخلق وتلك الأمانة المرجوة التي يغرس الإيمان الصادق شجرتها في قلوب أهله ، فتكبر وتثمر وتؤتي أكلها ، وأن يشاهدوا بأم أعينهم أمثال الرجال الصالحين الذين ينشئهم هذا الدين في كنفه ويربيهم ، والمجتمع العادل الذي يتكون من العمل بمبادىء

هذا الدين القويم . وكذلك ينجذب الناس الى حظيرة دين الحق وينضوون تحت لوائه إذا رأوا المدنية الصالحة والثقافة الطيبة الطاهرة ماثلة أمام أنظارهم ، وشاهدوا : كيف تنشأ الآداب والعلوم والفنون وتترعرع في حضن هذه المدنية وفق مبادىء الإسلام الحقة الخالدة ، وكيف يتكون على أساس الوئام والقسط النظام الاقتصادي الفطري البريء من الصراع الممقوت والاستغلال الجائر ؛ وفوق كل ذلك تنجذب البشرية بطبعها ودافع من سجيتها الى كنف الدين المبين إذا أبصرت بعيني رأسها : كيف يتحلى في ظلال هذه الشجرة الوارفة – شجرة دين الحق – كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية بالأخلاق الزكية الفاضلة ، ويعود خيراً للإنسانية شاملاً .

هذه هي الشهادة العملية وهذه خصائصها، فمن الظاهر البين أنه لا يمكن أداء هذه الشهادة وقضاء حقها إلا بأن نتخذ من أنفسنا ، أفراداً وجماعات ، برهاناً ناطقاً على صدقها وحجة ظاهرة على أن ما ندعو إليه من دين الحق ، حق عملي ، ملموسة آثاره ونتائجه في الحياة العملية . وذلك أن تشهد أعمال كل فرد من الأمة بصدق الدعوة وأخلاقهم بزكاء شجرتها وطيب ثمراتها ؛ وأن تتضوع بيوتنا ومنازلنا بأجمها بأريج تعاليم الدين السامية وتتنور متاجرنا ومصانعنا

قاطبةً بأنوار هدايتها وتستضيء مدارسنا ومؤسساتنا العلمية بأضوائها اللامعة ، وأن يكون أدبنا وصحافتنا لساناً ناطقاً بفضلها وحجة بالغة على من يجرؤ على إنكار محامدها . وكذلك أن تكون سياستنا القومية وحركاتنا الاجتماعية بأسرها برهاناً جلياً ودليلاً ناصعاً على وضوح المحجة البيضاء واستقامة الصراط الـ وي الذي نحن مستمسكون به وندعو البشرية الى سلوكه والسير على مبادئه القويمة السرمدية .

وصفوة القول أنه مهما يعاشرنا أحد من فرد أو جماعة ويعاملنا في أي شأن من شؤون الحياة أو ناحية من نواحيها المتعددة المختلفة، يجد من أخلاقنا وأعمالنا، أفراداً وجماعات، ما ينطق بلسان الحـال ويشهد له بأن المبادىء التي ندّعي كونها حقاً ناصعاً مؤيداً بالكتاب والوحي المنزل ، أنها لحق في واقع الأمر ، وأن الحياة البشرية تصلح وتتهذب وتنمو صعداً بالعمل بها والسير وفق مقتضاها .

ولا يحسبن أحد منكم أن هذا القدر من الشهادة العملية يكفينا مؤونة القيـام بالواجب ويرفع رأسنا عند الله يوم القيامة . بل الحق أن هـذه الشهادة لا تتكمل ولا تؤتي أكلها إلا إذا تكونت دولة ونهضت على دعائم تلك المبادىء الخالدة التي جاء بها الدين المبين واتخذت من إ ـة الدين غايتها وجعلت إنفاذ الشريعة الإلهية هدفها الاسنى وغرضها

الأسمى ، فسارت سيرة الدولة الإسلامية المنشودة وساست البلاد وأهلها بالسياسة العادلة الشاملة المستقاة من ينبوع الدين الكامل ، حتى تتجلى في إقامتها لموازين العدل والقسط ومناهجها الاصلاحية وتدبيرها لأمور الدولة وبسط جناح السلم والأمن على رعاياها والقيام بتقويم أودهم وفي أخلاق القائمين بادارتها واستمساكها بقواعد الحق والصدق والأمانة والنزاهة في سياستها الداخلية والخارجية وإقرار السلم والحرب ، تتجلى في كل هذه المظاهر بما يحمل الناس من الخاصة والعامة يهتفون قائلين : لعمر الحق ان الدين الذي ربى مثل هذه الدولة في حضنه ونشأها في كنفه ، لهو الدين الكامل للسعادة البشرية الموصل من يتبعه الى فلاح الدنيا والآخرة . فإذا انضمت هذه الشهادة الى الشهادة القولية ، فقد تمت حجة الله على خلقه ، وحينذاك نبلغ عذرنا من المسؤولية التي ألقيت على عواتق الأمة المسلمة ، وحينذاك يمكن لهذه الأمة المسلمة أن تقول أمام الملك المقتدر ، عز شأنه وتباركت أسماؤه ، على أثر الرسول الكريم ﷺ « إننا قد بلغنا أهل الأرض ما بلغته إيانا ، ولم نأل في ذلك جهداً ، فالذين لم يهتدوا بعد لكلمة الحق وما اتبعوا المنهاج الصحيح المرضي عند الله ، نحن منهم بريئون ، وإنما بغيهم على أنفسهم وتبعة ضلالتهم على عتوهم واستكبارهم » .

فهذه هي الشهادة التي كان علينا أن نقوم بها ونوفيها حقها قولاً وعملاً ، لكوننا مسلمين مؤمنين بالله معتزين بإسلامنا وإيماننا ومفتخرين بهما . فتعالوا معي ، أيها الأخوان، ننظر قليلاً ونتبصر : هل نحن قائمون بهذا الواجب العظيم حقاً ؟ ولنبدأ بالشهادة القولية . فإذا تأملت أحوال الأمة واستعرضت أخلاقها وأعمالها بهذا الصدد ، وجدت أن الذين يشهدون بالإسلام بألسنتهم وأقلامهم من هذه الأمة المسلمة، أفراداً وجماعات ، هم عدد قليل جداً . والذين يقومون بها حق قيامها ويأتونها على وجهها ومن حيث أمرهم به الله ورسوله ، يعدون على الأنامل . فإذا استثنيت هذه الفئة رأيت ان المسلمين شاهدون على الإسلام بما يظهر من أقوالهم ، مشوهون لسمعة الدين المبين بين جيرانهم من أمم العالم وسكان الأقطار المختلفة لما اتصفوا به من الأخلاق الدنيئة والأعمال الذميمة والعوائد المنكرة . وإن شئت الاستزادة فانظر الى ملاك الأراضي من أبناء الإسلام ، تجدهم يشهدون أن قانون الإرث[1] الذي أنزله الله في محكم كتابه لغواً لا قيمة له وأن تقاليد الجاهلية التي ورثوها من

---

(١) اشارة الى ما جرى به العمل في بعض الأقطار الهندية الكبرى ، كقاطعة بنجاب (باكستان) وارده في القاطعات المتحدة وغيرها من بعض الأقطار الساحلية الغربية .

آبائهم هي أقوم منه وأجدر بالاتباع ، وانظر الى القضاة والمحامين الذين يشهدون صباح مساء ان قوانين الإسلام كلها باطلة لا طائل تحتها، وان نظرية الشرع الإسلامي الجوهرية – أي أنه منزل من عند الله – هي باطلة من أساسها ، ويقولون أن القوانين الوضعية التي دوّنها رجال مثلنا ، هي الجديرة بالاستمساك بها والجري عليها في شؤوننا ومعاملاتنا؛ وكذلك اصرف بصرك الى ما تشهد به جامعاتنا وكلياتنا ومؤسساتنا العلمية والقائمون عليها وأساتذتها من أن النظريات التي جاءت بها أوربا وعلماؤها عن الفلسفة والتاريخ وعلوم العمران والاقتصاد والسياسة والفقه (Law) والأخلاق ، واستنبطوها من فكرتهم المادية هي التي يقبلها العقل ويؤيدها التحقيق العلمي . أما وجهة نظر الإسلام في هذه العلوم وآراؤه المحكمة الثاقبة عن هاتيك النظريات المختلفة فتلك مما لا يؤبه له ولا يلتفت إليه في قليل ولا كثير عند أساتذتنا الجامعيين ودكاترتنا المثقفين . وكذلك ارجع ببصرك الى ما يشهد به أدباؤنا في ما يظهر من ثمرات قرائحهم وبنات أفكارهم من أنهم لا يملكون من الروح الأدبي والنزعة الثقافية التي تؤثر في الأدب وتصبغه بصبغتها غير ما أوحت به إليهم أدباء انكلترا وفرنسا وروسيا ، وان معين الإسلام قد نضب وينبوعه الثرثار قد أصبح

ماؤه غوراً . بئست الشهادة هذه ، أعاذنا الله وإياكم من عواقبها الوخيمة . وعلى غرار ذلك صحفنا ومجلاتنا ، فانها أيضاً تماثل صحف غير المسلمين ومجلاتهم في بحوثها ومحتوياتها وأساليب الدعاية ولا تفوقها في شيء . ثم انظر الى التجار وأصحاب المصانع والمعامل ، فإنهم شاهدون ليل نهار ، بما يظهر من طرقهم ومناهجهم في المعاملات ، ان القوانين التي شرعها الإسلام للعقود والبيوع والحدود التي حدّت بها الشريعة الأسواقَ والمتاجرَ يستحيل العمل بها في هذه الأيام ، ولا سبيل للتجار وأصحاب المصانع والمتعاقدين في الأسواق إلا أن يسلكوا الطرق المعوجة التي يسلكها الذين لا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله وباليوم الآخر . وهؤلاء زعماؤنا ومالكو أزمة شؤون الأمة لا يعرفون لهم نعرة غير النعرات الوطنية ولا نزعة غير النزعات القومية ، وان طرقهم وأساليبهم في حل المشاكل القومية وفك معضلات الدستور والسياسة ، انما هي طرق الكفار بعينها. وإنهم معلنون للملأ بأصواتهم الجهورية ، شاهدون بألسنتهم وأقوالهم ان الإسلام لم يأت بشيء يهتدون به ويستضيئون بنوره في ظلمات المشاكل العالمية مما يتعلق بالدستور والسياسة العملية وغيرها . أما جمهور الأمة وسوادها الأعظم ، فهم أيضاً شاهدون شهادة ظاهرة بأن ألسنتهم ، لا هم لها إلا

التقول في شؤون هذه الدنيا، وأنهم ما أنعم الله عليهم بدين يتحدثون عنه أو يُنفقون نصيباً من أوقاتهم في التنويه به وتجاذب أطراف الكلام في شأنه . هذه هي الشهادة القولية التي تؤديها الأمة المسلمة اليوم في بلادنا وفي سائر بقاع الأرض .

أما الشهادة العملية فهي أسوأ منها حالاً وأبشع منظراً وأكثر تشويهاً لسمعة الإسلام . ولا ننكر أن الأمة لا تخلو من رجال ذوي صلاح ، يمثلون في حياتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم تعاليمَ الإسلام ومحاسنه أحسن تمثيل ، لكن عددهم نزر قليل جداً . أما السوادُ الأعظم فلا تسل عن حاله وعما ساروا إليه من درك الانحطاط الأسفل والتقهقر الذي لم يبلغ قراره للآن . فالذي يظهر من أعمال المسلمين الشخصية وتشهد به أخلاقهم الفردية أن الذين تربّوا في حضن الإسلام ونشؤوا تحت ظلاله لا يختلفون خَلقاً وخُلُقاً عمن نشأتهم الجاهلية في مهدها وأفرغهم الكفر في قالبه وليسوا بأحسن منهم سجية ولا أجمل منهم أدباً وأمانة ، بل الحق ، وذلك مما يؤسف له ويؤلم ، أنهم أحط منهم وأدنى الى ارتكاب المآثم والتجرؤ على الفواحش من أبناء الكفر في هذا العصر . فإن المسلم في عصرنا هذا — أقول قولي هذا ، والقلب يكاد يذوب حزناً وكمداً — يقدر على

الكذب والغش والجور والخديعة ويستطيع أن ينقض الأيمان بعد توكيدها ، ويرتكب السرقة ويقطع الطرق على السابلة ويشن الغارات وينهب الأموال ويعيث في الأرض فساداً ولا يستحيي من الخلاعة والفجور وركوب الفحشاء ، شأن أفراد الملل الأخرى المبعثرة في مختلف أرجاء هذه المعمورة ، وليس حظه من الرذائل بأقل من حظهم . ولا ينتهي الأمر عند ذلك ، فإن عشرتنا ومآكلنا ومشاربنا ومنتدياتنا وعوائدنا العائلية وتقاليدنا في حفلات الزواج والمآتم ومواسمنا ومؤتمراتنا ومواكبنا ، كلها مصطبغة بصبغة الجاهليتين القديمة والجديدة ، متلونة بلونها . قل لي بربك : هل ترى شيئاً منها يمثل آداب الإسلام والأخلاق الزكية التي أدّبنا بها هادينا ومرشدنا الأعظم صلوات الله عليه وسلامه ؟ وجملة القول أن كل فرع من فروع حياتنا الاجتماعية يناقض الإسلام ويعارضه . وناهيك به حجة للناس والعالم على أن أتباع الإسلام أنفسهم يؤثرون « الجاهلية » على « الإسلام » الدين الحق الذي فضلهم الله به على سائر خلقه . أو تراهم خاطئين إذا استنتجوا ذلك من حياتنا وأعمالنا ؟ وكيف نخطئهم ، وقد بلغنا من قفو آثار الجاهلية الجديدة وتتبع معالم الثقافة الغربية والافتتان بمظاهرها الخلابة ان إذا أردنا تأسيس مدرسة أو كلية اقتبسنا العلوم

ومناهج التعليم ومبادئه كلها من الذين يكفرون بالله ورسوله ؛ وإذا أسّسنا جمعيات، جعلنا غايتها وقانونها الأساسي وبرنامج أعمالها كالتي تكون لجمعيات الكفار وندواتهم ، حذوَ القُذّة بالقذة ؛ وإذا قامت الأمة جميعاً بعمل خطير أو نهضت بحركة ذات شأن أو تقدمت في مضمار الكفاح السياسي ، فلا يكون من مطالبها وطرق كفاحها ودستور مؤتمراتها ومنهاجها العملي وقراراتها وخطبها وتصريحاتها إلا مثل ما يكون للأمم الكافرة في مثل ذلك الموقف وتلك الظروف ، ينسجون على منوالهم ويتتبعون سننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . فإن بكيت فابكِ لحال البلاد المسلمة التي تتمتع بالحرية الكاملة أو الاستقلال الداخلي ، وعلى رأسها رجال ممن يدينون بالإسلام ، فإنها أيضاً أخذت إخذ الحكومات غير المسلمة واستنبطت قوانينها وشرائعها من قوانين الحكومات الكافرة وشرائعها . فمنها ما ضيّقت نطاق الشريعة الإلهية وحصرتها في دائرة (القوانين الشخصية) ومنها ما تقدمت خطوة أخرى فغيّرت من تلك القوانين الشخصية ، ما شاءت وشاءت أهواؤها أن تُغيّر . وقد أدرك هذا الضعف العدو الشامت وتنبّه لما في قوانين حكوماتنا المتسمة بالإسلام من نقض لقواعد الدين المبين وخروج على الشريعة السمحاء ، فكتب أخيراً أحدهم

– وهو Lawrance Browne في كتابه مستقبل الإسلام (The Prospects of Islam) – يشمت بالمسلمين عامة والهنود منهم خاصة ويذكر لقرائه الغربيين والشرقيين ما صارت إليه حال المسلمين من تنكب شريعتهم وعدولهم عن صراطهم السوي الذي يدّعون الاستمساك به.. وهاك ما قاله في هذا الصدد، عسى أن يعتبر به المعتبرون ويتذكر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد :

« ألغينا قانونَ الإسلام الجنائي والأهلي في الهند ، علماً منا بأنه يرجع الى العهد العتيق ولا يسمن ولا يغني من جوع في هذا العصر ، وأبقينا للمسلمين قانونهم الشخصي (Personal Law) فحسب ، كان ذلك ساء المسلمين وآلمهم ، لأن منزلة المسلمين بذلك أصبحت تماثل منزلة أهل الذمة في الحكومات الإسلامية منذ قرون . لكن الجو قد تبدل والأحوال قد تغيرت ، فلم يقتصر على ان مسلمي الهند قد رضيت أنفسهم هذا القانون ، بل تعدى الأمر الى أن الحكومات المسلمة قد اقتفت آثارنا في هذا الطريق . ومنها ما أدخلت – كتركية وألبانيا – تعديلات حسنة في قوانين الزواج والطلاق والإرث مما جعل قوانينها تبلغ مستوى قوانيننا وتنافسها . فقد انكشفت بذلك حقيقة ناصعة طالما أنكرها المسلمون ، ألا وهي أن عقيدة

المسلمين بأن الشريعة الإسلامية مستقاة من ينبوع الوحي الإلهي وهو الكتاب المنزل من السماء ، لم تكن إلا حديث خرافة وأسطورة مقدسة كما عبر عنه هذا الكاتب .

هذه هي الشهادة العملية التي يُؤدّيها المسلمون جميعاً في مختلف أقطارهم وبلادهم . ومهما يكن من أقوالنا والدعاوى الطويلة العريضة على إسلامنا وإيماننا، فإن ذلك لا يحرك ساكناً ولا يمحو باطلاً ، لأن عملنا الجماعي شاهد علينا شهادة ليس فيها من ريبة ولا إبهام بأن أعمالنا اليومية ليس فيها للدين ومناهجه أيُّ نصيب ، وأن حكوماتنا والقائمين على شؤونها ورجالنا ، خاصتهم وعامتهم كلهم ، لا يرون لهم في قانون الإسلام وشريعته أية سعادة ولا يجدون في اتباعه وسلوك سبيله أي متسع للرشاد والفلاح .

وهذا الذي يظهر من أعمالنا وأخلاقنا وأقوالنا ، إن هو إلا كتمان للحق وشهادة بالزور ، الذين حذرنا الله إياها وأنذرنا بها العقاب الأليم في الدنيا والآخرة . وها نحن أولاء ذائقون وبال هذا العدوان ، كما ذاقت وباله أمم أخرى من قبلنا . ومن سنن الله في هذا الكون أنه إذا كفرت أمة بأنعم الله وجحدت بها وعتت عن أمر ربها أذاقها الله لباس الجوع والخوف والخزي في الدارين وجعلها مثلا للأوّلين والآخرين ؛ كما فعل ربك باليهود من قبل ؛

فضرب عليهم الذلة والمسكنة ولعنهم وأنزل عليهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين . وها نحن المسلمين اليوم واقفون بين يدي ربنا في محكمته العليا التي وسعت هذه الكرة الأرضية كلها ، بله الدار الآخرة التي توضع فيها الموازين بالقسط ويُجازى كلٌ بقدر صنيعه . فلم تكن اليهود أبغض الى ربهم لغير ما سبب ، أن عاقبهم وأذل رقابهم وألبسهم لباس الذل والهوان ؛ وليس لنا من دالة على الرب الجليل ولا نمتُ إليه برحم أو قرابة حتى لا يؤاخذنا بذنوبنا ويعفو عن عتونا واستكبارنا في أرضه وتمادينا في الغي والضلال. بل الحقيقة التي لا مراء فيها أننا كلما تلكأنا في القيام بشهادة الحق وتقاصرنا في أداء هذا الواجب وكلما تجرأنا على الشهادة بالباطل وأمعنّا في الغي والعدوان تقهقرنا الى الوراء وأصابنا الضعف والخور واستولى علينا الذل والانحطاط . أو لا ترى أن بلاد المسلمين المنتشرة من مراكش في افريقيا الشمالية الى اندونيسيا في أقصى الجنوب الشرقي من هذه المعمورة، كلها خرجت من أيدينا في قرن واحد – أي القرن الثالث عشر للهجرة – وغلبت الشعوب المسلمة على أمرها واحدة بعد أخرى وانقلبت صاغرة حتى استولت الأجانب على بلادهم واستبدت بأمرها دون أهلها . ولم تعد كلمة « المسلم » علماً على المجد والسؤدد والشرف

كما كانت من قبل، بل انعكس الأمر وأصبحت هذه الكلمة الزكية مضرب المثل في الذل والفقر والتقهقر ، وأصبحنا لا نكاد نرفع رؤوسنا بين أمم العالم . وقد أصابنا من الهوان وسوء العذاب والاضطهادات ما لا قبل لنا باحتماله ؛ فمن الشعوب المسلمة من قتلوا عن بكرة أبيهم ومنهم من أخرجوا من ديارهم ومنهم من ساهم العدو المتغطرس سوء العذاب واستعبدهم وجعلهم أرقاء مستضعفين في الأرض . وأما البلاد التي بقيت فيها حكومات للمسلمين ، فلم تكد تقوم في وجه أعدائها وما استطاعت أن تقاومها مقاومة الندّ للند. فتتابعت عليها الهزيمة وتوالت النكبات ، وها هي اليوم تراها تقشعر جلودها لهول حملات الأجانب وتعجز حيلها وتدابيرها عن رد مكايدهم والكشف عن مؤامراتهم . ولعمر الحق أنها لو ظهرت بمظهر الحكومة الإسلامية الخالصة المستقيمة السالكة سواء الصراط في سياستها وسائر شؤونها الادارية وقامت بفريضة الشهادتين القولية والعملية لرأيت اليوم حملة لواء الكفر ترتعد فرائصهم لهولها وتنخلع قلوبهم لقوة الحق الجبارة وتعترف عقولهم وألسنتهم بصدق كلمتها وتذعن لجلال الحق . وإن أردت الاستزادة وأحببت معرفة عواقب الإعراض عن شهادة الحق ، فارجع ببصرك الى الوراء قليلا وتبصر حال الهند

المسلمة في القرنين السالفين وفي عصرنا هـذا ؛ فمن نتائـج التَلَهّي عن القيـام بشهادة الحق والارتطام في أوحـال السياسة حيناً والافتتان بسلطان الحكومـات المسيطرة وزخارفها طوراً ، ومن عواقب مـا قمنا به من الشهادة بالباطل والخروج عـلى الحق وما اقترفناه من المنكرات وشنائع الأعمال ، كان من نتيجة كل ذلك ان البلاد بأسرها خرجت من أيدينا ونحن لاهون غارقون في بحار الشهوات وقضاء المآرب الذاتية. وقد صُبَّت علينا أنواع من الشدائد وصنوفٌ من العذاب المهين بيد المرهتة[1] (Marhatta) والسيك[2] (Sikhs) أولا ، ثم أصبحنـا مركباً ذلولاً للانكليز يسوقوننا بعصى القهر والعسف كيفما شاؤوا ، الى أن تغيرت الأحوال مرة أخرى وتقلبت الأمور ظهراً لبطن

---

(١) المرهتة : شعب من شعوب الهنادك القاطنة في جنوبي الهند وجزء من شاطئها الغربي، استولت على البلاد في بدء القرن التاسع عشر للميلاد ، وظلت تشن الغارات وتعيث في الأرض فساداً الى أن استتب الأمر للانكليز .

(٢) السيك : أمة يفطن معظم أهلها في مقاطعة بنجاب ، وقد استبدت بالامر والنهي فيها بعد ما ضعفت الحكومة المسلمة في بدء القرن التاسع عشر الميلاد . وهي أمة بلغت من البربرية والهمجية غايتها ، فوضعت السيوف في رقاب المسلمين وأنزلت بهم من الشدائد والاهوال ما تقشعر الجلود لسماعه . وقد انتهى أمرهم حينما ضمت الانكليز مقاطعة بنجاب الى الحكومة المركزية في دهلي عام ١٨٤٦ .

من جديد ووجدنا أنفسنا بين شقي الرحى في الربع الأول من هذا القرن . وما زالوا بنا يتناوشون لحومنا وأجسادنا في ما بينهم الى أن طردتنا الانكليز ولفظتنا كما تُلفَظ النواة . أما الهنادك ، فبظلم منا وانحرافنا عن جادة الحق والتزامنا لنزعة القومية الضيقة وإغفالنا لواجب أداء الشهادة ومعاملتنا لهم طول القرون الغابرة معاملة الأجانب ؛ بهذا وذلك ثاروا بنا وأرادوا أن ينتقموا لأنفسهم ولآبائهم من أعراضنا ونسائنا وشيوخنا وذرارينا . وها هم اليوم تولوا معظم الأقطار الهندية ، وتحت إمرتهم زهاء أربعين مليوناً من المسلمين يذوقون وبال ما فرطوا وفرط آباءهم وملوكهم في القيام بشهادة الحق، وهم مهدّدون بالخطر صباح مساء، يُقتلون ويُذبحون، ودولتنا الجديدة (باكستان) التي حصلنا لها بالسير على هذه الخطة المعوجة — خطة القومية العنصرية الضيقة — لا تكاد تحرك ساكناً في شأنهم ولا تنبس ببنت شفة احتجاجاً على صنع الدولة الهندكية برعاياها المسلمين ، لما في بنيتها من الضعف ونفسها من خور العزيمة . وذلك أن أهلها القائمين على أمرها لا يؤمنون بالله إلا بألسنتهم ، وإنما اعتمادهم على الوسائل المادية ، ودفة الحكومة سائرة على المنهاج الذي خلفه لهم أساتذتهم الانكليز . والظاهر أن الهنادك ودولتهم أقوى من هؤلاء عدة وعتاداً وأقدر على

ادخـار الوسائل المـادية وكنوز الأرض وأكثر اقتداءاً بالانكليز ، أساتذتهم جميعاً . ولعمر الحق أنه لو كان مسلمو الهند قوامين لله شهداء بالقسط ، لما نشأت مسألة الأغلبية والأقلية في الغابر ولما كان للمسلمين اليوم خطر على نفوسهم من جيرانهم الهنادك . والذي نفسي بيده أنه إذا قام المسلمون اليوم بشهـادة الحق وظهروا بمظهر دين الحق الصادق في أقوالهم وأفعـالهم ، لانعدمت مشكلة الأغلبية والأقلية في الهند في بضع سنين . وكذلك مما لا مجال فيه للريب أنه إذا قامت دولتنا – باكستان – بهذه الشهادة خير قيام وأعطتها حقها من العناية والجد والسعي وتجلت بمظهر الدولة الإسلامية العادلة المستمسكة بعروة الشريعة السمحاء في دستورها وقانونها الأساسي (Constitution) وسياستها وقضائها ومعـاملتها للأمم والحكومات وقوانينهـا للسلم والحرب والتجارة والصناعة وغيرها من الشؤون ... إذا فعلت ذلك لأذعنت الدولة الهندكية الـكافرة لجلالهـا وطأطأت رأسها لسمو خلقها ونزاهة سياستها ولانعدم ذعرها وخوفها من جارتها بالجنب .

وما هي مشكلة الأغلبية والأقلية ، يا ترى ؟ أو لم تكن هذه المشكلة قد عرضت للمسلمين الأُوَل ، مصابيح الدجى في عصورهم ؟ نعم ، عرضت ؛ فقد أرادت العرب

أن تقضي على أقلية ضئيلة في مبتدأ أمرها لا يزيد عددها على واحد في مائة ألف وتستأصل شأفتها ، لكن شهادة الإسلام الصادقة البينة قد حولت هذه الأقلية الضئيلة الى أغلبية ساحقة في مدة لا تزيد على عشر سنوات . ثم لما نزح هؤلاء المسلمون الشهداء بالحق القوامون بالقسط الى الأرض الواسعة وظهروا أمام أقوام العالم بمظاهر العدل والنصفة والأمانة والنزاهة والعفاف وغيرها من الأخلاق الفاضلة ، آمنت لهم وصدقت بكلمة الله ودخلت الشعوب المنبثة بين تركستان شرقاً ومراكش غرباً في دين الله أفواجاً ، حتى إن الأقطار التي كان جميع سكانها من غير المسلمين أصبحت بلاداً عامرة بالمسلمين ، لم يبق منهم أحد إلا وقد دخل في دين الله ورضي به منهاجاً للحياة قويماً. وما استطاع شيء من العصبية القومية أو المراء أو التعصب الديني أن يثبت أمام سلطان الحق الناطق والحجة البالغة الماثلة للعيون والأبصار . فإن كنتم اليوم صاغرين وتجدون أنفسكم عرضة للأخطار ، مهددين بالأهوال والشدائد فما ذلك إلا جزاء كتمان الحق والشهادة بالباطل .

هذا جزاء تناسينا لدعوة الحق في هذه الدنيا . أما الدار الآخرة فإن هناك ما هو أشد وأنكى مما نذوقه في هذه الحياة الفانية من الذل والهوان من جراء هذه الغفلة

والاعراض عن أداء شهادة الحق. فليكن منكم على بال أنه ما دمتم متلهين عن القيام بواجب شهادة الحق، غير قوامين لله شهداء بالقسط ، كما أراد الله منكم أن تكونوا ، فكل ما يظهر في البرية من الضلال والعدوان وكل ما ينتشر في العالم من الخبائث ورذائل الأخلاق وكل ما ينبث فيه من الفجور والخلاعة والفحشاء لا تتخلصون من تبعته ولن يمكنكم أن تنجوا بأنفسكم من مسؤوليته . فإنكم ، ان لم تكونوا من الذين تولوا كبر تلك المآثم والمنكرات ، فلا جرم أنكم مؤاخذون بالتهاون في أمرها وعدم الاهتمام بكبح جماحها ومحاسبون بين يدي ربكم على أنكم ما قمتم في وجه تلك الرذائل التي عمت البلاد وبسطت جناح شؤمها عليها ولم تعلنوا الحرب عليها ، مع ان الله قد أمركم بذلك .

لعله قد تبين لكم في ما تقدم ما كان يجب علينا من فريضة الشهادة الحقة ونحن مسلمون مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر وما نحن مشتغلون به متلهُّون بلمعانه وبريقه من الـتُرَّهات والخرافات وما قد حل بنا من نقمة الله، من الذل والهوان في هذه الدار الفانية ، وما لا نزال نذوقه من صنوف الأذى والشدائد من جراء إعراضنا عن واجب الشهادة بالحق وافتتاننا بزخارف الحياة العاجلة والنزعات الجديدة النافقة في سوق الغرب . وإذا أمعنتم

في المسألة وتأملتم حقيقتها من هذه الوجهة وسبرتم غورها، اتضح لكم وضوح الشمس في رابعة النهـــار ، أن المسائل والمشاكل التي اتخذها المسلمون مسائلهم الجوهرية ومشاكلهم الحقيقية وجعلوها غـاية حياتهم القومية وهدفها الأسمى ، والتي تراهم يسعون وراءها ليل نهار ويتذرعون في سبيل النجاح فيها بالحيل التي تلقوا معظمها من الأجانب وحذوا حذوهم فيها .. إذا تأملتم كل ذلك ، اتضح لكم وانكشف ان تلك المسائل والمشاكل ليست في شيء من مسائل حياتهم الحقيقية ولا صلة لها بغايتهم الحقيقية التي ندبهم الله لها ، وأن إنفاق الأموال وصرف القوى المعنوية والخلقية في سبيل تحقيقها وإيجاد حلها ، إنما هو إضاعة لتلك القوى الثمينة ومجلبة لسخط الله ونقمته . أما : كيف تحافظ أقلية عـــلى خصائصها ومقومات حياتها ومصالحها وهي محاطة بأغلبية ساحقة من حولها؟ وكيف تنال أغلبية في دارها وبلادها الأصلية السلطة التي تخولها أغلبيتها العددية أن تتمتع بها وتتصرف فيها ؟ وكيف تدافع أمة مستضعفة عن حريتها واستقلالها وتدفع عن نفسها عدوان الجائر وكيد الظالم؟ وكيف يسترد شعب متقهقر حقوقه المغصوبة ويتنعم بالرفاهية والرخاء ويتذرع بالقوة المادية حتى يقدر على مناهضة الأمم القوية ومجاذبتها بحبل. هذه المسائل وغيرها من أمثالها يمكن

أن تكون مهمة وذات شأن وخطورة لغير المسلمين ، وأن تكون قطباً لمساعيهم تدور رحاها حوله ، وغاية لجهودهم وكفاحهم يطمحون بأبصارهم اليهـا ويتطلعون شوقاً اليها ، لكنها ليست بمسائل مستقلة في نفسها في حقنا، نحن المسلمين، بل الأمر انها ثمرات الغفلة المخزية التي غشيتنا ظلماتها منذ قرون ونتائج وخيمة لما أعرضنا في الغابر ولا نزال معرضين اليوم عما كان يجب علينا من أداء واجبنا الحقيقي وصرف الجهود والهمم في سبيل تحقيقه. ولو قمنا بذلك العمل الحقيقي المطلوب ، لما نشأ اليوم كثير من تلك المسائل المعقدة التي لا يرى آخر لأولها ، وما نجمت هذه المشاكل المعضلة التي أناخت علينا بكلكلها وكادت تقضي على قوتنا المعنوية . وايم الحق أنه إذا أدركنا الموقف اليوم وتنبهنا للحقيقة وشرعنا في العمـل من جديد وراء الغاية الحقيقية وولينا وجوهنا شطر الهدف المنشود غير منصرفين بوجوهنا يمنة ويسرة ولا ملتفتين الى ما اعترضنا وما عسى أن يعترضنا من المسائل والمشاكل من جراء تفريطنا في جنب العمل الحقيقي وتهاوننا في شأن الدعوة وأداء الشهادة .. إذا شرعنا في العمل بجد واهتمام وبذلنا في سبيله الجهد المستطاع لانقشعت عن قليل سُحُبُ الظلمات التي غشيتنا وانحلت تلك المشاكل المعضلة التي أناخت علينا بكلكلها بنفسها. وذلك أننا، نحن المسلمين،

كان الله جعلنا مصابيح لظلمات الجهل وأنواراً لدياجير الغفلة والضلال وكنا مسؤولين عن ضلال العالم وارتطامه في أوحال البغي والعدوان ؛ ولما تناسينا واجبنا وأغفلنا ما انتدبنا له وتلهينا بسفساف هذه الدنيا الدنيئة ، امتلأت الأرض جوراً وعدواناً وغشيها من ظلمات الجهل والبغي والفحشاء والمآثم ما غشي، وكان حظنا من تلك المخزيات وأنواع الهوان والذل أوفر من حظ غيرنا؛ ولا غرو، فالمسؤول عليه وزره ووزر من غفل عن هدايته تحت إمرته وإشرافه . والأسف ، كل الأسف، أن علماء المسلمين وزعماءهم لا يكادون يفطنون الى هذه الحقيقة الناصعة ولا يزالون يجعلون أمتهم وبني قومهم يوقنون ان مسائلهم الحقيقية التي تعنيهم وتستدعي الاهتمام بها والجد في سبيلها ، هي مسائل الأغلبية واستقلال الوطن والدفاع عن الكيان القومي والرقي المادي. وكذلك يلقنون إخوانهم المسلمين نفس تلك الحيل والتدابير التي تلقوها من غير المسلمين لايجاد حل لهذه المشاكل وفك معضلاتها، كأني بهم لا يكادون يفرقون بين طبيعة الإسلام ومميزاته وبين ما جبل عليه الكفر من خصائص ومميزات . والذي نفسي بيده، وإني على بينة من هذا الأمر، أن هذه الطرق والمناهج هي سبل الكفر المعوجة التي يتتبع معالمها زعماؤكم والذين أخذوا زمام أمركم بأيديهم فضلوا السبيل وأضلوا خلقاً

كثيراً من الناس وعدلوا بهم عن المحجة البيضاء والطريق الأقوم . وإن أبيتم إلا سلوك تلك الطرق المعوجة الزائغة ، تنكبتم الصراط السوي ولن يمكنكم أن تبلغوا المنى وتؤتوا سؤلكم من الرشاد والفلاح في الدنيا والآخرة. ومن واجب الأمانة الملقاة على كاهلي أن أبين لكم المسألة، وأدلكم عليها وأشرح مسألة حياتكم الحقيقية الجوهرية التي يتعلق بها مستقبلكم في هذه الحياة الدنيا والدار الآخرة بعدها ، حتى تكونوا على بينة من أمركم وتتجلى لكم الحقيقة ناصعة. والذي وفقني الله لمعرفته والعلم به والاطمئنان اليه ان مستقبل حياتكم في هذه الدنيا وما يعقبها من الحياة الآجلة منوط بمسألة واحدة : وهي المعاملة التي تعاملون بها الهداية التي بلغكم إياها النبي العربي الأمي ﷺ والتي آمنتم بها وأصبحتم مسلمين بفضل ذلك الايمان ، والتي جعلتكم – رضيتم أو أبيتم – ممثلين للإسلام في العالم ، يرون دين الحق كما يرونكم تمثلونه . فإن تمسكتم بها وعضضتم عليها بالنواجذ وشهدتم شهادة الحق بأقوالكم وما يظهر من أعمالكم شهادة صادقة، كما أمر بها الله ورسوله ، وتجلت أخلاق الإسلام ومميزاته في حياتكم الاجتماعية وأخلاقكم الجماعية بأبهى مظاهرها وأروعها، فذلك فوز الدنيا والآخرة . وحينئذ لا ترون هذه السحب المتكاثفة من الخوف واليأس والذلة والمسكنة التي تغشت

قلوبكم وأحاطت بأنفسكم، إلا كسحابة صيف تنقشع عن عشية أو ضحاها. وتشاهدون ان دعوتكم الحقة وأخلاقكم السليمة المستقيمة بدأت تأخذ بالألباب وتجد الى القلوب سبيلها وتسخر الأفكار والعقول الناضجة، وأن العالم يعترف لكم بالأمانة والنزاهة والعفاف وأنهم يعقدون الآمال عليكم ويرجون منكم العدل والنصفة والحكم بالقسط ويثقون بكم وبأمانتكم وزكاء معاملتكم. وكذلك ترون الناس يستشهدون بأقوالكم، يرجعون اليها في تخاصمهم ونزاعاتهم ويؤملون منكم الخير والبر. وحينئذ لا تقوم لأئمة الكفر والضلال قائمة ويتزعزع بنيان فلسفتهم ونظرياتهم السياسية والاقتصادية ويتجلى للناس تمويههم وإغراؤهم بالباطل أمام صدق مقالكم واستقامة منهاجكم ويبدو للنواظر ما بين الصحيح والزائف والغث والثمين من فرق وتفاوت ملموس. وهذه القوى وتلك الوسائل التي ترى اليوم منضمة الى صفوف الكفر ومنضوية تحت لوائه ستجدها تنكسر وتنفلت عنه شيئاً فشيئاً وتلتحق بصفوف الإسلام وتنضوي تحت رايته. الى أن يأتي اليوم الذي ترتعد فيه الاشتراكية في عقر دارها، خوفاً على نفسها، وتقشعر جلود الجمهورية الرأسمالية في مسقط رأسها، خشية تدهورها وانعدام نفوذها، وتكاد جامعات لندن وباريس بأنفسها تضيق ذرعاً بأوكار الالحاد وينابيع الفلسفة المادية وتضيق الخناق عليها،

وكذلك ينعدم أنصار العصبية والعنصرية النسلية والنزعة الوطنية المتطرفة في البراهمة والجرمانيين (الالمان) أنفسهم ويطلع علينا فجر ذلك اليوم السعيد الذي يحق لنا أن نتذكر فيه تناسينا لواجبنا وتلهينا عن فريضتنا ونجدد ذكر الأيام التي سلفت بقلوب ملؤها الأسف والحبور معاً ونذكر في ما بيننا ولمن يأتي بعدنا من الأجيال أنه قد أتى على حملة لواء الإسلام حين من الدهر كانوا يوجسون في أنفسهم خيفة مما يبصرونه عن أيمانهم وعن شمائلهم من حبال سحرة الغرب وعصيهم ، وبأيمانهم « العصا » التي فيها دواء لأدوائهم ومنجاة من شرورهم ومكايدهم .. هذا ما يتراءى لي من مستقبلكم الزاهر إذا أسلمتم وجوهكم لله مخلصين له الدين وكنتم قوامين لله شهداء بالقسط ، كما أراد الله منكم أن تكونوا . وإن عكستم الأمر وقلبتم الحقائق وجعلتم مثلكم كمثل الذي وجد خزانة ثمينة فلا ينتفع بها ولا يدع أحداً ليستفيد منها ؛ تدّعون بالإسلام وتتسمّون به وتظهرون أمام العالم بمظهر حملة الأسلام ورافعي لوائه وتشهدون بأقوالكم وأعمالكم الجماعية بالباطل وما يصحبه من تقاليد الجاهلية والشرك والاباحية والفجور والتهافت على حطام الدنيا الدنيئة ، وقلما يستثنى من ذلك أحد . هذا كتاب الله بين يديكم وفي صدوركم وفي بيوتكم وفي

مدارسكم وخزائن كتبكم ، لكن الأمة بأسرها ترجع الى أئمة الكفر والضلال وتستهديهم ؛ تدعون بألسنتكم الى عبادة الله وتسفون وجوهكم لكل من يُعبَد من دون الله من الطواغيت ؛ تتحابون وتتخاصمون للمآرب الذاتية والأغراض الشخصية ، وتهتفون بالإسلام وتنادون باسمه ، تريدون أن تخدعوا الناس وتنالوا شيئاً من المنافع العاجلة. وجملة القول: ان لم تقوموا بأداء واجب الشهادة بل عكستم الأمر وقلبتم الموقف وأصبحتم كهؤلاء الذين حرموا أنفسهم ثمرات هذا الدين المبين وحرّموا بركاته المتواصلة الدائمة عليهم ، وفوق ذلك صرفوا العالم عن ورود مائه العذب والارتواء من منهله الصافي بما كدروا عينه وشوهوا سمعته بأكدار أخلاقهم وسيئات أعمالهم ؟ إن أحببتم سلوك هذا المسلك الوعر وآثرتم ركوب هذا المركب الخشن فقد خسرتم الدنيا والآخرة ، أعاذنا الله من ذلك ووقانا شره . هذه سنة الله في خلقة ولن تجد لسنة الله تبديلا . وها قد شاهدتم رأي العين ما حل ولا يزال يحل بكم من نقمة الله وسخطه في هذه الحياة العاجلة. ومن يدري ماذا ينتظركم في ما يستقبلكم من الأيام ؟ وربما يكون ذلك أشد من هذا وأنكى . بل الحقيقة أنكم لو خلعتم عن أبدانكم لباس الإسلام الذي لا تلبسونه إلا زوراً وتلفيقاً وجاهرتم بالكفر ، لتحسنت عاجلتكم

وتمتعتم بمرافق هذه الحياة الدنيا وثمراتها الشهية كما يتمتع به سكان أمريكا وروسيا وبريطانيا والمتصرفون في أمورهـا . واما أن تتمتعوا بالاسلام وتشهدوا بالكفر وأن تدعوا الإسلام وتشوهوا سمعته أمام العالم بشهادتكم المزورة الكاذبة وتسدوا بهـا أبواب الهداية في وجوه الأسود والأحمر من الناس ، فتلك جريرة لا بـد أن تذيقكم لباس الخزي في هذه الحياة الدنيا وتوردكم موارد الذل والهوان في كل ناحية من نواحي الحياة العاجلة . والعذاب الصارم الذي كتبه الله للذين يقترفون هذا الاثم ويتعاطون هـذا المنكر الشنيـع لا قبل لكم به ولن تجدوا من يصرفه عنكم . وحسبكم عظة وعبرة ما صارت اليه اليهود، الذين كانوا يدّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، من الذلة الأبدية وما باؤوا به من غضب الله ونقمته . وسواء عليكم ، إذا تنكبتم المحجة البيضاء وعدلتم عن الصراط السوي، أسلكتم طريق الوطنية أو الاشتراكية أم آثرتم سبيل القومية العنصرية أو الرأسمالية أو اخترتم طرقاً اخرى غيرها ، فانها غـير مجدية عند الله ولا مبرئة إياكم عن عدوانكم وافتئاتكم عـلى الحق . والطريق الوحيد للتخلص من عواقب هذه الغفلة المنكرة وشدائد ذلك العقاب الأليم هو تجنب هـذه السبل التي ذهبت بـكم يميناً وشمالاً وعدلت بكم عن المنهاج المستقيم والحذر منها والابتعاد عن

حدودها وتخومها .

هذا ، وقد بينت لكم بشيء من التفصيل ما كان وجب عليكم من أداء شهادة الحق وما ظهر منكم من التهاون في شأنها وما جر عليكم هذا التهاون من الذل والهوان والانحطاط الخلقي والمادي ، أريد الآن أن أشرح لكم ما قمنا لأجله وما ندعو اليه. فدعوتنا الى الذين يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً ان يجعلوه ديناً لأنفسهم في واقع الأمر وان يتدينوا به أفراداً وجماعات ويتحلوا بمحاسنه ويزينوا حياتهم الفردية والجماعية بحسناته وعوارف فضله ويقيموا أركانه ويوطدوا دعائمه ويثبتوا مكارمه وبركاته في بيوتهم وعائلاتهم ومجتمعاتهم ومدارسهم ويصبغوا متاجرهم ومعاملاتهم وشؤونهم الاقتصادية بصبغته . وكذلك نحثهم على أن يعملوا بما يقتضيه هذا الدين في جمعياتهم ومؤسساتهم القومية ويُسَيِّروا سياستهم القومية وفق منهاجه ، حتى لا يبقى فرع من فروع الحياة ونظام من نظمها العديدة المتشعبة من الحرب والسلم والسياسة الدولية والمشاكل الاقتصادية والمعضلات الاجتماعية إلا وقد أفرغ في القالب الذي تستدعيه طبيعة دين الحق وتتطلبه تعاليمه الحقة . فخلاصه ما ندعوهم اليه ونهيب بهم الى الاستمساك به أن يشهدوا بالحق بأقوالهم أمام العالم شهادة صادقة تقنع الناس بصدق تعاليم هذا الدين وتؤكد لهم

صواب منهجه . فإن هذه الشهادة – شهادة الحق – والسعي وراء « إقامة الدين » هما أقصى غاية للمسلم وقصارى ما يجدر به أن يكد فيه ويجتهد . فينبغي أن تكون هذه « الشهادة » القطب الذي تدور حوله رحى سائر أعماله في هذه الدنيا والهدف الذي يصوب اليه سهام مساعيه وجهوده.

فتعالوا ، أيها المسلمون ، كفوا أيديكم عن كل ما يناقض الإسلام ويشينه ويشوه سمعته . واختبروا جميع أعمالكم وامتحنوا كل ما يصدر عنكم من قول أو فعل وزنوه بقسطاس الإسلام المستقيم واطرحوا عنكم كل ما يرفضه هذا القسطاس ويأباه واصرفوا بأنفسكم جملة واحدة الى دعوة الإسلام واجعلوا شهادة الحق غايتكم القصوى من هذه الحياة ولا تألوا في ذلك جهداً ولا تدخروا وسعاً حتى تؤدى هذه الشهادة على وجهها ويكون الدين كله قائماً ملموساً يشهده العالم وتتم حجة الله على عباده في أرضه؛ فلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، كما قال في كتابه ، وهو أصدق القائلين :

هذا هو الغرض الوحيد من تأسيس « الجماعة الإسلامية » والطريق الذي اخترناه للقيام بهذه الفريضة ، هو أننا نبدأ بالمسلمين ونذكرهم واجبهم ونبين لهم معنى الإسلام ونشرحه لهم ، وندلهم على مقتضياته وما يتطلب منهم ويستدعيهم

الى أدائه والقيام به ، وما هي المسؤوليات التي يكلف بها المسلم بمجرد دخوله في دين الله وإيمانه بالله واليوم الآخر .

فالذين يتقبلون هذه الدعوة بقبول حسن ويتفطنون لما ندعوهم اليه ، نبين لهم بعد ذلك أن مقتضيات الإسلام لا يأتي العمل بكثير منها ، أفراداً ووحداناً ، وانما يحتاج بعضها – وهو الجزء الأعظم منها – الى عمل جماعي وسعي يشمل جميع طبقات الأمة أفراداً وجماعات . فالذي يتعلق من أجزاء هذا الدين الكامل بالحياة الفردية فقط قليلٌ جداً . فلا يعلو الدين ولا ترتفع كلمته ولا يمكن إعطاء واجب الشهادة حقه باقامة هذا الجزء من الدين ، ولا تُجزىء هذه من تلك . وأضف الى ذلك أن هذا الجزء من الدين أيضاً لا يمكن إنفاذه بأسره والعمل بجميع أوامره ونواهيه ما دام سلطان الكفر مستولياً على الحياة الاجتماعية وتُنظُمه مستبدةً بسائر شؤونها ؛ فإنه ينقلب الأمر حينذاك وتجد نظم الكفر وسلطته تضيق الخناق على هذا الدين الفردي ، – إن صح هذا التعبير ، وأريد به نواحيه التي تتعلق بالحياة الفردية فحسب ، كما تقدم – وتُقلّل من دائرة نفوذه شيئاً فشيئاً . فلا مندوحة لاقامة الدين الكامل وأداء شهادة الحق على وجهها من أن يتحد المسلمون الذين يشعرون بمسؤولياتهم وواجباتهم ويجدون من

لأنفسهم شوقاً وميلاً الى السعي في سبيلها وبذل الجهود في تحقيقها ويصبحوا كتلةً متراصةً وينظموا صفوفهم لاقامة دين الحق ودعوة العالم الى الاغتراف من بحر مكارمه والارتواء من مناهله العذبة ، حتى يمكن لهم أن يقوموا قومة رجل واحد لتحقيق هذه البغية السامية ويكونوا يداً واحدة على من يضع العقبات والعراقيل في سبيل الدعوة الى الفلاح وإقامة الدين ، ويدفعوا عنها مكايد الذين يضمرون لها سوءاً او يريدون بها شراً ويردُّوا عنها عدوان من يعترض سبيلها او يحول دون إنجاز مهمتها .

ومن هناك تعرف السر في ما أمرنا به الله ورسوله من لزوم الجماعة وشدٍّ في ذلك أيما تشديد . ولذلك ترى أن منهاج العمل الصحيح المرضي عند الله في سبيل القيام بالدعوة الى إقامة الدين وإعلاء كلمته أن يُبدأ بتشييد بنيان الجماعة وتوطيد دعائمها أولاً ثم يشرع في العمل والكفاح في سبيل الله . وهذا المعنى – أي لزوم الجماعة ومكانتها الخطيرة من قواعد الإسلام – قد وردت فيه أحاديث كثيرة . منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« آمركم بخمس : بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، وأنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا ان يراجع .

ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثيّ جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم »[1] .

فيدل هذا الحديث الشريف في ما يدل عليه من معان سامية ، على ثلاثة أمور بارزة :

(١) الترتيب الصحيح والتدرج الطبيعي في القيام بالدعوة والعمل لاقامة الدين ان تتكون الجماعة أولاً ؛ بحيث ينقاد الجميع لأحد من أنفسهم ويطيعون ما يأمرهم به وينهاهم عنه . ثم يأتي بعدُ العملُ بالهجرة والجهاد ، يُعمل بهما حسب ما تسمح به الظروف والأحوال . هذا أولها .

(٢) والثاني أن الخروج من الجماعة يعدُّ خروجاً من الإسلام وعوداً الى حياة الجاهلية التي لم يكن للعرب فيها أمير ينقادون له جميعاً ويمتثلون أوامره .

(٣) وثالث الثلاثة ان معظم مطالب الإسلام ومقتضياته وغاياته المهمة لا تتم ولا تكمل إلا بالجماعة والجهود الجماعية . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في من خرج من الجماعة انه « خلع ربقة الإسلام من عنقه » وان صام وصلى وزعم انه مسلم . وبهذا المعنى رُوي عن سيدنا عمر

---

(١) رواه الامام احمد والترمذي عن الحارث الأشعري مرفوعاً (راجع مشكاة المصابيح : كتاب الامارة) .

ابن الخطاب انه قال : « لا إسلام إلا بجماعة [1] » .

فالذين يفقهون هذا المعنى ويفهمونه حق الفهم فينشأ فيهم شعور بالمسؤولية وإيمان بالواجب قوي ، حيث يحثهم على التجرد عن أهوائهم ونوازعهم الشخصية ويحدوهم على الانخراط في سلك الجماعة والتقيد بقيودها ونظمها ابتغاءاً لمرضاة الله وخدمة لدين الحق ... نقول لأمثال هؤلاء أن يختاروا لأنفسهم ما شاؤوا من الطرق الثلاثة المفتوحة أمامهم ، ليس لها من رابع :

(١) إن اطمأنت قلوبكم وانشرحت خواطركم الى أن دعوتنا ومبادئنا وغايتنا ونظام جماعتنا ومنهاج عملنا الذي انتقيناه لجماعتنا ولأنفسنا كلها حق خالص ، مستقاة من ينبوع الكتاب والسنة ، لا يشوبها شيء من شوائب الجاهلية ؛ فإن اطمأننتم الى ذلك وشهدت أنفسكم بأن العمل الذي قمنا لأجله وندعو المسلمين اليه ، هو العمل الذي يجدر بكل مسلم ومسلمة أن يكون نصب عينيه وغايتها الوحيدة في هذه الدنيا ، فتعالوا وشاركونا في أمرنا وشدوا أزرنا في هذه المهمة واعملوا لها العمل الذي ينفعكم في الدنيا والآخرة ان شاء الله .

(٢) وإن لم تطمئن نفوسكم الى عملنا وما انشرحت

(١) جامع بيان العلم لابن عبد الله .

قلوبكم الى مؤازرتنا فيه فابحثوا عن جماعة أخرى تعمل لهذه الغاية الدينية الخالصة وتجتهد في سبيلها بطرق إسلامية خالصة وانتظموا في صفوفها وانضووا تحت لوائها وشاركوهم في عملهم . وايم الحق لو وجدنا جماعة مثل هذه لاشتركنا فيها وانضممنا اليها ، فإننا أحرص الناس على الجماعة وأزهدهم في الشذوذ والانفصال وأرغبهم عن الفرقة .

(٣) وان لم يكن هذا ولا ذاك – أي إن لم ترض نفوسكم بالاشتراك معنا وما وجدتم جماعة أخرى بهذه الصفة تنضمّون اليها – فقوموا بأنفسكم أداءاً لفريضتكم الإسلامية وقياماً بواجبكم الديني وابذلوا جهودكم في تأسيس جماعة دينية خالصة ترمي الى إقامة الدين الكامل وأداء شهادة الحق بأقوالها وأعمالها معاً .

هذه هي أبواب العمل ومناهجه الثلاثة المفتوحة أمامهم ، أما الذين يتقبلون هذه الدعوة بقبول حسن ويشعرون بمسؤوليتهم الفردية والجماعية بهذا الصدد . فنقول لهم ونهيب بهم : أن اختاروا أيها شئتم . واذا اخترتم إحداها فلن يفوتكم الحق ان شاء الله تعالى فإنّا ما ادعينا – وما لنا أن ندعي ذلك – ان الحق ينحصر في جماعتنا ، وأن الذي لا يشاركنا في عملنا ولا ينخرط في سلكنا يتبع الباطل . كلا ! لم نقل بذلك ، وما لنا أن

نقول به ونحن نعقل ونبصر وكذلك لا ندعو الناس أن ينضووا تحت لوائنا او يدخلوا في جماعتنا خاصة بل دعوتنا أولاً وآخراً الى الفريضة التي هي فريضة كل مسلم ومسلمة ، كما أسلفنا في ما تقدم . فمن قام بهذا الواجب وسعى له سعيه فهو على الحق ، شاركنا في أمرنا او لم يشارك . أما وأن لا تقوموا بواجبكم ولا تجتهدوا في أداء الشهادة — شهادة الحق — على وجهها ولا تساعدوا الذين يسعون وراء تحقيق هذه الغاية ، فذاك ليس من سداد الرأي وصواب المنهج في شيء . وكذلك تَلَكُّؤُكم عن الاشتراك في القيام بواجب الشهادة والسعي وراء إقامة الدين وتذرعكم بحيل وأعذار لا طائل تحتها ، بل فوق ذلك توجيه قواكم وصرف همكم ومساعيكم في تأييد الباطل وتشييد بنيانه وتوطيد أركانه ، وشهادتكم بالباطل بأعمالكم ، وتشويهكم لوجه الحق بأخلاقكم وسيركم ، فهذا كله تحاسبون عليه بين يدي ربكم وتذوقون وبال أمركم . وربما نفعتكم هذه الأعذار وخففت من جريمتكم تلك الحيل ، لو كان الأمر يرجع الى هذه الدنيا ومن فيها ؛ لكن مردّكم ومرجع قضيتكم هذه الى الله العلي الأوحد الذي لا يعجزه شيء في ملكوته ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض . فأين المفر من ذلك .

ولا جرم ان ظهور غير واحدة من الجماعات لغاية واحدة وغرض واحد مما لا يستحسن وربما يخشى منه الضرر على الغاية المنشودة نفسها . ولكن ليس لنا عن ذلك مندوحة في بدء الأمر ، فإن النظام الإسلامي قد انتثر عقده وتبدد شمله منذ قرون ، ولسنا اليوم فحسب بصدد تسيير دفة الأمر وإدارة شؤون نظام الإسلام موطدة دعائمه وأركانه ، بل الذي ألقي على عواتقنا اليوم هو إحياء هذا النظام الميمون من جديد وبعثه من مرقده والنهوض بأصوله وفروعه كرة أخرى . فليس من الممكن أن تتكون في أول عهدنا بهذه الجهود والمساعي تلك « الجماعة » التي تشمل الأمة بأسرها وتظلهم جميعاً بوارف ظلالها ؛ حتى يجب على كافة المسلمين لزومها والانقياد لأمرها والدخول في حظيرتها ويعد الخروج منها او عليها خروجاً من دائرة الإسلام وارتداداً من دين الله ، كماورد في الحديث الشريف . فلا بد لنا في بدء الأمر أن تتكون جماعات مختلفة في أقطار مختلفة للقيام بهذه الدعوة والعمل لها ، وأن تجد كلها ساعية الى هذه الغاية حسب ما تسمح لها به الظروف والأحوال . فإن كانت هذه الجماعات والقائمون على أمرها مخلصين في أعمالهم جادين في هذه السبيل ابتغاءاً لوجه الله ، سالكين الطريق السوي عاملين

بالمناهج الإسلامية الخالصة غير منحازين الى جانبي الافراط والتفريط ، فلا جرم أن تتحد هذه الجماعات ويصبح العاملون فيها يداً واحدة على من سواهم وإخواناً متحابين في ما بينهم . فإن السالكين طريق الحق لا يمكن أن يبقوا متباعدين الى أجل بعيد ، فإن الحق من طبيعته أن يؤلف بين الناس ويجعلهم إخواناً متحابين في الله ، فهو جامعهم في صف واحد ومنظم لصفوفهم تحت لواء واحد ان شاء الله . ولا يظهر التباعد والتنافر إلا اذا امتزج بالحق شيء من الباطل او مُوِّه الباطل بألوان من الحق ولا يكون في ذاته وطبيعته إلا باطلاً صرفاً .

هذا ، وبقي لنا أن نذكر ما نطالب به الذين يدخلون في جماعتنا وينضمون الى صفوفنا بعد ما يفهمون هذه الدعوة حق فهمها ويوافقوننا على مبدئنا ومنهاج عملنا . فما نطالب أعضاءنا والذين يظهرون استعدادهم لمؤازرتنا في هذا العمل الميمون إلا بالذي يطالب به الإسلام كل مسلم ومسلمة . فلا نزيد شيئاً على مطالب الإسلام الحقيقية ولا ننقصها . وإنما نعرض الدين كاملاً على كل منهم ونقول لهم : ان اقبلوا هذا الدين وأنتم تشعرون بما يصحبه من الواجبات والأعباء الخطيرة واقضوا حقه على وجهه متفطنين الى ما فيه من بعد المرمى وسمو الغاية

قضاءاً يمثل للعالم محاسنه ومزاياه ويريهم بركاته وآياته الباهرة ، وطهروا أفكاركم وأخلاقكم وأعمالكم من كل ما لا يوافق روح الدين وأوامره ، حتى تكون حياتكم بأسرها شهادة للإسلام ناطقة بمكارمه ومحامده . — هذه هي شروطنا وقوانين جماعتنا ، وإن شئت قلت الاشتراك والاكتتاب المطلوب من كل من يريد أن يكون عضواً في جماعتنا ومؤازراً لنا في مهمتنا . وهذا قانون الجماعة الأساسي ونظامها ومنهاج عملنا والذي ندعو الناس اليه ، كلها بين يديكم فمن شاء فلينظر فيها بنفسه وليتأمل : هل فيها من شيء يخالف قواعد الإسلام ؟ وهل زدنا شيئاً على الإسلام الحقيقي او نقصناه ؟ ولا نريد بالإسلام الحقيقي إلا ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فمن دلنا على شيء في دستورنا — القانون الأساسي — ومنهاج عملنا يعدُّ زيادة على الكتاب والسنة وأثبت لنا ذلك بالدلائل المرضية ، نبذناه وأخرجناه من قانوننا البتة . وكذلك إن أرشدنا الى شيء من أصول الدين قد فرّطنا في جنبه وما اشتمل عليه منهاجنا ودستورنا ، ضممناه الى قانوننا ودستورنا من غير ما لجاج ومكابرة . وكذلك اننا ما شمرنا عن ساق الجد وما اجترأنا على الوقوف في هذا الموقف الخطر إلا لاقامة الدين كاملاً والشهادة بالحق على

وجهها . فمن أظلم منا لنفسه ومبدئه ان لم نكن مخلصين في غايتنا وداخلنا النفاق والدخل في هذه المهمة نفسها .

فالذين يدخلون في جماعتنا وينضمون الى صفوفنا على هذا المنهاج ، ليس لهم من عمل عندنا غير أن يشهدوا شهادة الحق باعمالهم ويظهروا بمظهره الوضيء في أقوالهم وأخلاقهم ويجدُّوا ويجتهدوا مجتمعين متساندين في سبيل اقامة الدين وتنفيذ نظمه وقوانينه كاملاً ، من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل ويقوموا لأجل ذلك بحركة جماعية شاملة حتى يمكن قضاء حق « الشهادة على الناس » على وجهها وتتم حجة الله على خلقه . أما الشهادة القولية ، فقد شرعنا منذ بضع سنوات في تربية أعضائنا وتثقيفهم بثقافة إسلامية جامعة على منهاج مخصوص يؤهلهم لاداء شهادة الإسلام بألسنتهم وأقلامهم واعطائها حقها من التحقيق والعناية في محاوراتهم وكتاباتهم . وقد بدأت هذه المساعي تؤتي أكلها بفضل الله وتوفيقه . وكذلك نحن جادون في تأسيس مؤسسات علمية يُعنى القائمون بها والعاملون عليها وفيها بابراز محاسن الإسلام واقامة الحجج الظاهرة والبينات الساطعة على سمو تعاليم الإسلام ونظرياته السياسية والاقتصادية ورجحان كفتها وعلو مبادئها وتفوقها على ما يماثلها من النظريات الرائجة المستوردة من بلاد الغرب

وتستخدم لذلك كل ما يمكن استخدامه من وسائل النشر والاذاعة ؛ وفي نيتنا أن لا يقتصر هذا العمل على فرع دون فرع ، بل يشمل سائر فروع العلم والأدب . وذلك كله في أسلوب علمي مستند الى قواعد العلم الصحيح والمنطق السليم . وقد ابتدأ هذا العمل أيضاً منذ أعوام ، وقد ظهرت آثاره في معظم اللغات الهندية ، وستزداد ثمراته نضوجاً وبركاته ظهوراً على تعاقب الأيام ، ان شاء الله .

أما الشهادة العملية ، فالذي جعلناه نصب أعيننا في هذا الشأن أن يكون كل فرد منا في حياته الفردية شهادة بالإسلام ناطقة ، ثم يتكون من هؤلاء الأفراد مجتمع منظم صالح يصطبغ بصبغة الإسلام الصحيح الخالص ويتطبع بطابعه الخاص ، تسري روحه في جسده ويجري دمه في عروقه ، حتى يتمثل الإسلام للعيان ويمكن للعالم أن يروا تعاليمه الصادقة كيف تعمل عملها في مجتمع ، اذا قبلها ودان بها . ثم يتقوى هذا المجتمع وينمو وتتفرع غصونه وفروعه الى أن تبسط جناح رحمتها على العالم وتمحق النظم الباطلة وتقيم نظاماً للحكم يمثل الإسلام في أبهى مظاهره وأروعها ويرى العالم الخيرات والبركات التي يعود بها هذا الحكم وذلك النظام على الإنسانية جمعاء .

فيا أيها السادة والاخوان الكرام ! هذه غايتنا وهذا

منهاج عملنا . فهل في ذلك من شيء يسوء المسلم ؟ ولعله لا ينقضي عجبكم اذا سمعتم أنه قد صوّبت الينا أنواع وأصناف من سهام الطعن والنقد والتقريع من كل صوب منذ يوم أعلنا تأسيس بنيان هذه الجماعة — وذلك منذ ثماني سنوات — وشمرنا أذيالنا للعمل على إحياء الدعوة الإسلامية وعرضها على أنظار العالم خالصة مخلصة من أدران الجاهلية والزندقة والجمود . ولسنا في هذا المقام بصدد الرد على تلك المطاعن والشبهات لأننا نعتقد بصميم قلوبنا ان أعمالنا ومنهاجنا وما يظهر للناس من سيرنا وطبائعنا خلال القيام بالدعوة ، ستكشف بنفسها عن جلية الأمر وتحقق للناس صدق ما ندعوهم اليه وتؤكد لهم سداد خطتنا وبراءة ساحتنا من كل ريبة . إلا أننا لا نود السكوت عن شبهة واحدة ربما يلتبس فيها الأمر على بعض المخلصين أيضاً . ألا ، وهي ان جماعتنا هذه — الجماعة الإسلامية — تكاد تبذر بذور فرقة جديدة في الإسلام . فالذين يتردد على ألسنتهم مثل هذا الكلام ، لعلهم لم يعطوا المسألة حقها من التفكير ، وربما غابت عنهم الأسباب التي تفضي الى تكوين الفرق وانتشارها . فإذا استقصيت الأسباب التي تجر الى التفرق في الدين وتكوين الفرق في دائرته وجدتها لا تعدو أنواعاً أربعة :

(١) الأول أن يضاف الى أصل الدين ما ليس منه ، ثم تتخذ تلك الزيادة مقياساً للكفر والإيمان او الهداية والضلالة .

(٢) والثاني أن يهتم بمسألة من مسائل الدين اهتماماً لا سند له في الكتاب والسنة ، ثم تجعل تلك المسألة معياراً للسبق في مضمار التدين والتبرز في العلم بالدين ، حتى تتكون على أساسه فرقة جديدة تدعو الى الاستمساك بتلك المسألة الخالصة والاهتمام بها فوق ما تستحقها بكثير :

(٣) والثالث أن يعمل بالغلو والافراط في المسائل الاجتهادية والفروع المستنبطة ويُكفّر او يُضلّل ويُفسّق من يخالف طائفة او يعارضها في مسألة من المسائل الاجتهادية او على الأقل ينظر الى الذين يخالفون طائفة في المجتهدات والفروع نظرة ازدراء وتحقير او يعاملون معاملة من لا يشاركونهم في دينهم وملتهم ، كأنهم أمة أخرى غيرهم .

(٤) ورابع الأربعة أن يعظم شأن رجل او امام من الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ويُتوّج بلقب او منصب ديني يكفر جاحده ويضلل من لا يؤمن بمنصبه ، وكذلك اذا ادّعت جماعة من جماعات المسلمين أن الحق ينحصر في دائرتهم والذين من دونهم من المسلمين إنما

يتبعون الباطل .

فقل لي بربك : هل ظهرت منا بوادر تنم على سبب من هذه الأسباب الأربعة المفضية الى التفرق والشقاق بين المسلمين ؟ فإن دلنا أحد منكم على شيء من هذه ونبّهنا على أخطائنا في هذا الشأن ، رجعنا عنها من غير أدنى تأمل وتبنا من ذلك الى الله . فإن مهمتنا إحياء دين الله وتوطيد أركانه ونشر كلمته في مشارق الأرض ومغاربها ، ولا شيء أبغض الى قلوبنا من الشقاق وإحداث التفرق . أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وكذلك دعوتنا ، إنما هي الى الدين كاملاً لا الى فرع من فروعه ؛ وأساس دعوتنا وبنيانها هو « الدين الكامل » لا مسألة من المسائل او مبدأ من مبادئه خاص .

أما المسائل الاجتهادية ، فنعترف بجميع المذاهب التي لها متسع في الكتاب والسنة ، ولكل واحد منا أن يتبع منها ما يطمئن اليه خاطره وتسكن اليه طبيعته او يوافقه تحقيقه . ولا رى من الحق في شيء أن تتألف الجماعات وتتكون الفرق على أسس هذه المذاهب .

أما جماعتنا فقد قلنا مراراً ، ولا نزال نقول ، بأعلى أصواتنا إننا لا نرى الحق منحصراً في دائرتنا . وإنما

وفقنا الله للشعور بواجبنا والقيام بالدعوة الى كلمته والجد في إعلائها ورفع شأنها . وها نحن نذكر المسلمين كافة ما يجب عليهم في شأن دين الحق وأداء شهادة الإسلام . فمن شاء شاركنا في أمرنا وآزرنا في مهمتنا ، ومن شاء قام بنفسه يؤدي واجبه ويسعى الى غايته او يساعد من يراه قائماً بهذه الفريضة ، جاداً في سبيلها .

وعلى غرار ذلك ما غلونا في من ولیناه أمرنا وانتخبناه أميراً لجماعتنا وقائداً لنا في هذا المضمار . فإننا ما دعونا الى الاعتقاد في ذاته والنظر اليه بنظر التقديس والإكبار ، كما ينظر الجهال الى المشعوذين من المتصوفة . فما دعونا قط ، ولا ندعو الى شخص بعينه او رجال بذواتهم نجعله او نجعلهم مقياساً للحق والباطل . كلا ! بل دعوتنا الى الغاية السامية التي هي غاية كل مسلم ومسلمة حسب ما ورد في الكتاب العزيز وكما شرحنا في ما تقدم ، والى المبادىء التي نعبر عن مجموعها « بالإسلام » .

فالذين يشاركوننا في هذه المهمة ويؤازروننا في القيام بها ، يعدون أعضاءها العاملين . وهم الذين ينتخبون أميرهم حسب الشورى التي ورد بها القرآن وعمل بها الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون . ولهم أن يعزلوا هذا الأمير عن منصبه حسب قواعد الشرع ، اذا شاؤوا .

وهذا الأمير ، أمير هذه الجماعة ، يتولى أمرها ويدبر شؤونها ويقوها الى ميادين الجهاد والكفاح . ولا نقول ، ولم نقل قط ، أن أمير جماعتنا هو أمير المسلمين كافة ، وان من لم يدخل في طاعته فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه او مات ميتة الجاهلية . وكيف لنا أن نقول بذلك ، وفي رؤوسنا عقول تتفكر وتتدبر .

فأنشدكم الله ، أيها الاخوان ، تفكروا في المسألة وانظروا : كيف تحدث فرقة جديدة لأجل قيامنا بهذه الدعوة وتأسيس جماعة لأجل هذا الغرض المبمون . فتعالوا ، أيها الخلان ، وتنبهوا لواجبكم واشعروا بما ألقي اليكم من المسؤولية الفادحة ، مسؤولية الشهادة بالحق . تعالوا نتقدم للعمل ونبرىء ذمتنا عند الله ورسوله ونُتِمُّ حجة الله على خلقه .

والله يتولانا وإياكم بأمره ويوفقنا وإياكم في العمل لمرضاته ؛ انه ولي التوفيق . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

من مؤلفـــات

الاستاذ أبي الاعلى المودودي

★

١ – شهادة الحق
٢ – الدين القيم
٣ – الإسلام والجاهلية
٤ – الجهاد في سبيل الله
٥ – نظام الحياة في الإسلام
٦ – الربا
٧ – الحجاب
٨ – تفسير سورة النور
٩ – نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور
١٠ – حركة تحديد النسل
١١ – موجز تاريخ تجديد الدين وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم .
١٢ – الأسس الاخلاقية للحركة الإسلامية
١٣ – نحن والحضارة الغربية
١٤ – مسألة ملكية الأرض

شهـادة الحـق
طبع بموافقة وزارة الشؤون الدينية
تحت رقم : 88/05 ، بتاريخ : 88/1/3
رقم الإيداع : 199 / و . باتنة

سيصدر عن دار الشهاب ـ بإذن الله ـ :

مُصطفى مَشهُور

زادٌ على الطّريق

دار الشهاب
للطباعة والنشر والتوزيع
باتنة